الحياة اللّيتورجيَّة لكنيسة الإسكندرية[1]

(٥)

القرن السابع الميلادي

مقدِّمة:

بعد دخول العرب مصر سنة ٦٤٢م، شحَّ الأدب اللّيتورجي، واتَّجه العرب إلى تعريب البلاد، وجُعلت اللُّغة العربيَّة لُغةً رسميَّة، ذلك لعدم معرفة العرب باللُّغة القبطيَّة. فغموض اللُّغة القبطيَّة بالنسبة لهم، ومُمارسة القبط لشتَّى طقوس حياتهم اليومية بها، جعل العرب يقلقون، لذا كانوا يلجأون إلى كلِّ وسائل الترجمة المُتاحة، لنزع ستار الإبهام بينهم وبين الشعب.

ومع الوقت، زاد اهتمام الأقباط بتعلُّم اللغة العربيَّة، وخصوصًا العاملين بديوان المُحاسبة، حرصًا على وظائفهم، وكهمزة وصل بين القيادة العربيَّة وشتَّى القُرى القبطيَّة.

الفنون القبطية:

+ كان الأقباط يُزيِّنون شرقيَّة الهيكل بصور السيِّد المسيح والرُّسُل والقدِّيسين، وكان بعضها مرسومًا على خشب، يُلصق على جدران الهيكل، أو تُرسم الأيقونات على جدران الشرقيَّة. وبحسب التقليد القبطي، كان رسم أيقونات القدِّيسين هو في داخل الهيكل فقط، وليس في أيِّ مكانٍ آخر من الكنيسة.

+ ويُلاحَظ خلال القرون الأولى لدخول العرب البلاد، أنه قلَّت صُوَر الأشخاص، وشاع رسم الخطوط الهندسيَّة، وفروع أوراق وثمار بعض النباتات مثل: الرُّمَّان والكَرْمَة. ويقول المقريزي: "إنَّ الآثار القبطيَّة الحاليَّة، لا تُمثِّل الجودة الحقيقيَّة للفن القبطي، لأن اللَّوحات الثَّمينة قد حُطِّمت في سلسلة الاضطهادات المستمرة".

+ بداية وجود خورس مُتميِّز مُخصَّص للشمامسة، يرتفع قليلًا عن الأرض، وأحيانًا يكون له درابزين من الخشب المشغول أو المعدن، يفصله عن ساحة الكنيسة.

---

(١) نُتابع في هذا العدد تقديم موجز عن التاريخ اللّيتورجي لكنيسة الإسكندريَّة، وهو عن كتاب للراهب أثناسيوس المقاري، صَدَرَ بنفس الاسم، سنة ٢٠١٨م.

الحياة الليتورجيَّة:

+ انحسرت التَّوبة العلنيَّة أمام الجماعة، واتخذت طابع التقليد الرهباني، حيث صار المؤمن يُمارس اعترافه أمام الكاهن سرًّا، وبدأ السِّر الكنسي، كسِّر التوبة والاعتراف، ينحصر في مجرد الاعتراف بالخطيئة على الكاهن، وذلك على حساب التَّوبة التي كان يلزم أن يُقدِّمها التائب أولًا أمام الله.

+ في سنة ٦٣٠م، حدث استرجاع خشبة الصليب المُقدَّسة من بلاد الفُرْس إلى أورشليم على يد الإمبراطور هرقل (٦١٠- ٦٤٠م)، ورفعُه على الجُلجُثة. وعُرف هذا اليوم باسم عيد "رفع الصليب" أو "إعلاء الصليب". وكان من تداعيات هذا الحدث أن أُضيف أسبوع ثامن على الصوم الكبير، حيث عُرف الأسبوع الأول من الصوم الأربعيني بأسبوع هرقل.

+ شاع في ذلك الزمان عادة أن يأكل الشعب يوم الخميس الكبير بعض الأطعمة، ثم يحتفلون بخدمة القُدَّاس الإلهي، ويتناولون من الأسرار المُقدَّسة، اقتداءً بما فعله الرب يسوع عندما تناول أولًا العشاء حسب العادة، ثم أعطى الأسرار الإلهيَّة للتلاميذ.

+ عيد الميلاد كان يمتدُّ ليشمل ثلاثة أيام، هي ٢٨ و٢٩ و٣٠ كيهك. وله برامون، وهو صوم يوم واحد قبله للمساء.

القرن الثامن الميلادي

في تاريخ الكنيسة:

في بداية هذا القرن، في عهد الوليد بن عبد الملك، وفي زمن أسامة بن يزيد، تعرَّضت الكنيسة، ومعها مصر كلها، لحملة اضطهادٍ عنيفة، أتت على الأخضر واليابس، فهُدمت كنائس، وخُرِّبت بعض التجمُّعات الرهبانية، وتعرَّضت معظم المقتنيات الكنسيَّة للسلب والنهب والحرق.

كما شهد هذا القرن زيادة عدد الأقباط الذين دخلوا الإسلام، وبالتالي قلَّ دخل البلد من الجزية، وكانت النتيجة زيادة العبء على مَن بَقِيَ على دينه. وقامت كثيرٌ من ثورات الأقباط، وإن كان يُقضَى عليها وتُخمَد سريعًا. كان عدد الإيبارشيات في مصر آنذاك ١٦٨ إيبارشيَّة، إلَّا انَّ العدد تدهور بسرعةٍ بعد هذا القرن. كانت أعداد الكنائس القبطية تُعدُّ بالآلاف، وبلغت أديرة الرهبان بالمئات، ولكنها تدهورت هي الأخرى بسرعةٍ في أواخر هذا القرن.

في التراث الأدبي والتراث الفني للكنيسة:

+ شهد هذا القرن ما عُرف باسم "حرب الأيقونات"، وهي إن كانت قد ظهرت في العالم البيزنطي؛ إلَّا أنها خلَّفت من ورائها أثرًا انتشر في سائر الكنائس القبطيَّة، وهو "حامل الأيقونات (للقدِّيسين)"، ليفصل بين الهيكل وصحن الكنيسة، مع إنه ليس طقسًا أو تقليدًا قبطيًّا.

+ تُعتَبَر الكنيسة القبطية من أقدم الكنائس في استخدام الأجراس التي تُدقُّ للدعوة للعبادة (إلَّا أنه قد صَدَر أمرٌ سنة ٨٥٠م بمنع دقِّ أجراس المنارات، بل بمنع بناء المنارات في الكنائس).

في صلوات وأسرار الكنيسة:

+ انتقل طقس التقدمة (أي طقس تقديم الحَمَل) إلى ما قبل قُدَّاس الكلمة.

+ كان يُحتَفَل بالّليتورجيَّا القبطيَّة في كلٍّ من الإسكندريَّة والوجه البحري، باللغة اليونانيَّة. أمَّا في صعيد مصر، فكان في الغالب بلهجاتٍ قبطيَّة مختلفة (البحيريَّة والصعيديَّة).

+ كانت القرابين تُحفظ بعد قُدَّاس أحد الشَّعانين للتناول منها في الثلاثة الأيام التالية، أي الاثنين والثلاثاء والأربعاء من البَصخة المقدَّسة، وهي الأيام التي لا يُقام فيها قُدَّاسات، ولا يُرفع فيها بخور.

القرن التاسع الميلادي

في تاريخ الكنيسة:

+ ظلَّ الكرسي الباباوي موجودًا بالإسكندريَّة حتى زمن البابا خائيل الثاني (٨٤٩- ٨٥١م) الـ ٥٣ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة.

+ ظلَّ جسد مار مرقس مدفونًا بالإسكندريَّة، حتى سرقه بعض البحَّارة الإيطاليِّين سنة ٨٢٨م، وأخذوه إلى بلادهم. أمَّا الرأس فقد بَقِيَ محفوظًا إلى اليوم بالكنيسة المرقسيَّة بالإسكندريَّة.

+ ظهرت صناعة الكتاب لأوَّل مرَّة في العالم، في العصر القبطي. واستعمل الأقباط البردي في الكتابة حتى القرن التاسع، ثم استبدلوا البردي بالرُّقوق التي استمرَّ استعمالها حتى القرن الثاني عشر.

+ تدهورت اللغة القبطية، وانتشر العرب في الريف، واختلطوا بالمصريين، وتزوجوا

بناتهم، واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة، وغير ذلك من الأعمال التي كانوا يترفَّعون عن الاشتغال بها من قبل. وكان لهذا كله أكبر الأثر في انتشار اللغة العربية، وقضائها على اللغة القبطية. وهكذا في عهد الخليفة المأمون (٨١٣- ٨٣٣م)، أصبح الشعب المصري يدين معظم أفراده بالإسلام.

في التراث الأدبي والتراث الفني للكنيسة:

+ تُرجم العهد القديم كلُّه من السبعينية إلى العربية بواسطة حنين بن إسحق، أكبر مُترجم في عصر النهضة العباسي.

+ تمَّ اكتشاف وجود قراءات كتابية في الّليتورجيَّة المصريَّة لكلِّ يوم صباحًا ومساءً.

+ الألحان القبطيَّة التي بَقِيَت محفوظة، أغلبها نصُّه قبطي، والقليل نصُّه يوناني، ولكن كلَّ موسيقاها قبطيَّة. ونصوص هذه الألحان روحيَّة عميقة، وتُعدُّ في أعلى مستوى للأدب اللاهوتي. ومنها ما يستغرق موسيقاها حوالي خمس عشرة دقيقة، وتُرتَّل على كلمة واحدة أو بضع كلمات.

في صلوات وأسرار الكنيسة:

+ جُمِعَ لأول مرَّة كتاب الأجبية، أي صلوات السواعي، في كتابٍ واحد.

+ كانت هناك عادة تنفرد بها الكنيسة القبطية، وهي دهن العروسين بالزيت في صلاة الإكليل. **(يتبع)**

****

صَدَرَ حديثًا **من إعداد: أبناء المُتنيِّح أنبا إبيفانيوس**

الترجمة السبعينية للكتاب المقدَّس

سفر إرميا، وباروخ، والمراثي، ورسالة إرميا

(يوناني – عربي)

٥٠٤ صفحة (من القَطْع الكبير – تجليد فاخر)

وأيضًا: طبعة عربي

٣٥٨ صفحة (من القَطْع المتوسط)

****